٥

لا تنطق بكلمة واحدة

قررنا إنشاء مفاعل ديمونة ضمن مسعانا لتحقيق السلام!

الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز في ٨ فبراير ٢٠١٠

فتحت صداقة ميلتشان بكل من شمعون بيريز وموشيه ديان أمامه عوالم جديدة، إذ كشف بيريز لأرنون سر إسرائيل الخطير، والذي لم يكن يعرفه سوى بضع مئات في البلد كله، إذ كان هذا يعد سراً آنذاك! وتفاخر بيريز قائلاً: أنا من جندته.

في تلك الأيام كانت إسرائيل نسبياً أمة فقيرة نامية، ترزح تحت وطأة المقاطعة العربية الاقتصادية الموسعة،وكانت تمثل مزيجاً غريباً من التكنولوچيا المتقدمة والتكنولوجيا البسيطة، شديدة التدين متطرفة العلمانية، فسيفساء من أناس من كل أنحاء العالم مختلفي الألسن والثقافات والأطعمة على المائدة القومية. وكانوا كلهم تقريباً من المهاجرين وأغلبهم كان لديه عائلات خارج البلد، وكانت مساحة القدرات الاستخباراتية المحتملة ولا تزال حتى يومنا هذا... هائلة.

وعودة إلى عام ١٩٥٧ (عام حفل بلوغ أرنون)، إذ سافر مرشده المستقبلي وصديقه المقرب شمعون بيريز إلى باريس ليضع اللمسات الأخيرة على اتفاقية بالغة السرية. حيث كان بيريز قد تفاوض مع الفرنسيين لبناء المفاعل النووي المتكامل الأركان مارغول جي ٢ في إسرائيل، بهدف -وفقاً لإسرائيل- تصنيع

أقوى سلاح ردع، لتجنيب البلاد أى محرقة أخرى بأى ثمن كان. وبالطبع وصفت الصفقة برمتها بأنها برنامج طاقة سلمي، تحسباً لاكتشافها قبل الأوان.

وكانت تلك الصفقة النووية جزءاً من تفاهم سرى بين البلدين والذى أدى لقبول إسرائيل الاشتراك مع فرنسا وبريطانيا فى عدوان عام ١٩٥٦ على سيناء لإقصاء مصر عن السيطرة على قناة السويس، وهى من أهم الشرايين المائية للسفن فى العالم. ووافقت إسرائيل أيضاً على دعم الأبحاث العلمية المتعلقة ببرنامج فرنسا النووى المتنامى.

وتم تمويل المفاعل النووى بشكل غير رسمى، فى الأغلب من قبل ٢٥ شخصاً ثرياً من كل أنحاء العالم، وكان ثمانية عشر شخصاً منهم أمريكيين. وكانوا جميعهم لا يعرفون بصورة عامة تفاصيل قنوات إنفاق أموالهم لكنهم

كانوا يعرفون فقط أنها ستنفق على احتياجات أمنية حيوية.

أمنت تلك الاتفاقية مواقفهم القانونية جميعهم، وساهموا بحوالى ٤٠ مليون دولار، ويعادل المبلغ حالياً ربع مليار دولار، وتم إتمام بناء المفاعل واكتملت مواصفاته عام ١٩٦٢، وبدأ العمل به عام ١٩٦٣، وأنتج سلاحه النووى الأول بحلول عام ١٩٦٧ . ومذاك ويُعتقَد بأن إسرائيل تمتلك سادس – ويحتمل خامس- أكبر ترسانة أسلحة نووية فى العالم، -حوالى مائتى رأس نووى- بعد الولايات المتحدة وروسيا والصين وفرنسا وبريطانيا.

خطط برنامج إسرائيل النووى، والمنظمة الاستخباراتية التى أُنشِئت لدعمه، أناس من جيل شهد رعباً مباشراً لا يمكن تخيله فى المحرقة، وكلهم فقدوا أفراداً من عائلاتهم الكبيرة. وفى الواقع فقد نحتت عبارة "مستحيل مرة أخرى" على أول قنبلة ذرية إسرائيلية.

اعتُبِر المشروع بالغ الأهمية للأمن مستقبلاً ولبقاء الأمة الصغيرة لدرجة أنه لم يُقتِّر أحد فى التكاليف ولم يكن هناك حدود لا يمكن تخطيها فى سبيل الوصول إلى الهدف النهائى: وهو سلاح ردع نووى متكامل الأركان مزود بكل أنظمة التوصيل المحتملة.

وبخلاف ديفيد بن جوريون الذى اتخذ القرار النهائى بالبدء فى المشروع، كان هناك ثلاثة أشخاص مسئولين أولاً وبشكل سرى عن تحويل القنبلة الإسرائيلية لأمر واقع.

الأول كان شمعون بيريز الذى تولى إدارة الجانب الدبلوماسى الدقيق للأمور مع الفرنسيين وكان المسئول الأول، وقال عن تحفظه: لم يُعرَف سوى القليل جداً عن برنامجنا النووى، وأردت أن يعرف أقل من ذلك حتى عن دورى.

وشعرت بأننى إذا كُشف أمرى، فستدمرنى الصحافة أنا والمشروع سواء، فبعد كل شيء كنت شخصاً مثيراً للجدل سياسياً وحالماً متهوراً، وبدا المشروع ذاته رائعاً للغاية. ولهذا السبب لم يدرج اسمى بأية لجنة رسمية أسست فى مجال الطاقة النووية، لكن هذا لم يمنعنى من إدارة المشروع برمته بفاعلية نيابة عن بن جوريون، ولم يحدّ أحد من سلطتى بأى شكل.

لكن فى مقابلته الشخصية مع مؤلفى الكتاب، ولأول مرة أسهب، بيريز فى الحديث عن دافعه الأساسى فى قيادة برنامج إسرائيل النووى. إذ كان محل تركيزه هو السلام بواسطة القوة:

"لتجنب استخدام القوة ضروب، ارتأيت أننا يجب أن نكون أقوياء، فكرت فى مفاعل ديمونة –وهو الخيار النووى– بحثاً عن السلام، ولعب أرنون دوراً هاماً فى إنجاز تلك المهمة".

والشخص الثانى الذى ساهم فى تطوير البرنامج النووى الإسرائيلى كان الدكتور إرنست ديفيد بريغمان، والذى سُمى عن استحقاق أبو القنبلة الإسرائيلية. وكان عالم كيمياء ألمانياً يهودياً نابهاً رحل عن ألمانيا بصعود هتلر فى عام ١٩٣٣ وانضم فى النهاية إلى الدكتور حاييم وايزمان ولمعهده العلمى فى «روحوفوت». كان بريغمان كبير العلماء العاملين بالبرنامج.

الشخص الثالث كان رجلاً خفياً، وكان مسئولاً عن الاستخبارات المضادة والأمن فى وزارة الدفاع حتى أُختير شخصياً فى عام ١٩٥٧ من قبل بيريز نفسه لتولى كل الأمور المتعلقة بالأمن لضمان نجاح البرنامج. كان اسمه بنيامين بلومبيرغ.

لم يكن بلومبيرغ مشهوراً فى إسرائيل أو فى أى مكان آخر، لكنه أصبح

أسطورياً فى دائرة الاستخبارات الإسرائيلية الصغيرة ككبير رهبان السرية. وكان أقرب مثيل له فى مشروع مانهاتن هو الفريق ليزلى غروف.

وما إن باشر عمله لإتمام النسخة الإسرائيلية السرية الضخمة من مشروع مانهاتن، أدرك بيريز -الحائز حالياً على جائزة نوبل للسلام- أن عليه خداع الناس بشكل كبير لتجنب الاكتشاف المبكر والملاحقة الدولية المحتملة لإنهاء المشروع قبل أن تقوم له قائمة. وأدرك أيضاً أن البرنامج سيحتاج إلى سبيل للوصول للمواد والمعدات والتى لم يكن من السهل الحصول عليها فى السوق المفتوحة، وأنه ليس هناك إلا دول قليلة مستعدة لبيع تلك المواد لإسرائيل.

ولتجاوز تلك المشاكل المعقدة والمثبطة للهمم، قرر بيريز إنشاء منظمة جديدة بالغة السرية، وحدة بالغة السرية لدرجة أن أهم وكالة استخبارات فى إسرائيل -الموساد- لم تعرف بوجودها لسنوات تالية، بالرغم من أنها كانت تدار من مقرها ذاته. وعندما عرفوا بها، فعلوا كل ما فى مقدورهم لوقف العملية المارقة، وفى النهاية تقبلها الموساد وعمل معها عن كثب.

ولفترة من الوقت عملت الوحدة السرية بدون اسم من مكاتب صغيرة داخل مقر وزارة الدفاع فى تل أبيب. ولاحقاً أُعطيت الاسم الغامض مكتب المهام الخاصة، ونقلت من وزارة الدفاع إلى منطقة تجارية غير معروفة، فى الدور الثالث فى مبنى إدارى غير مميز فى شارع كارلباخ، على ناصية شارع هاتشاشمونيم فى تل أبيب.

فى مطلع السبعينيات تبنت الوحدة اسم مكتب الاتصال العلمى واختصارها العبرى لاكام، وكانت كنيتها الموساد ٢ . ومهمتها المحدّدة الأساسية هى تأمين المواد والمعدات التى ستجعل إنتاج القنابل النووية ممكناً.

أوكل إليها تحقيق ذلك بأية وسيلة ممكنة، بواسطة عمليات الشراء الشرعية من السوق المفتوحة إن أمكن، وبالسرقة والخداع إن لزم الأمر، وبالقوة والقتل كملاذ أخير.

وكانت مهمة بلومبيرغ هى التأكد من تذليل أية عقبات قد تواجه العلماء والعاملين فى المفاعل بالقرب من مدينة ديمونة الصحراوية حتى يتمكنوا من تحقيق هدفهم النهائى. وفى الأعوام اللاحقة كان للاكام أن تتولى مهاماً أكبر بكثير من مهامها فى البحث عن أية تقنية متعلقة بأنظمة توصيل الأسلحة النووية، مثل توجيه الصواريخ، وتكنولوجيا تصغير القنبلة الذرية، والمفاتيح النووية، نابذات تخصيب اليورانيوم، وقود الصواريخ الصلب، وأجهزة تشويش الصوت، ومعدات الرؤية الليلية، والعديد من المواد والمعدات والتصميمات الحساسة العلمية والتكنولوجية.

تم تشكيل عدد من المفوضيات بالغة السرية، تضم ممثلين مختارين ومحل ثقة من المجمع الصناعى العسكرى الإسرائيلى وللمعاهد العلمية.

كان هؤلاء المفوضون يعقدون اجتماعاً كل أسبوع تقدّم فيه قوائم المواد بالغة الحساسية والتى يصعب الحصول عليها والمطلوبة للعديد من المشاريع إلى منسق التجهيزات، والذى كان عميلاً سرياً فى لاكام.

كان المفوضون عادة ما يشرحون المواد المدرجة فى القائمة، والغرض منها، ودرجة أهميتها، وأماكن وجودها المحتملة، وأية معلومة أخرى وثيقة الصلة يمكن أن تساعد فى جلبها. وبالطبع لم يكن لدى ممثلى تلك المشروعات أدنى فكرة عما يفعله العميل السرى للاكام فعلياً، كل ما كانوا يعرفونه أنه هو من يلجأون إليه لطلب الأغراض التى يصعب الحصول عليها. أما عن تفاصيل

الطريقة التى تجلب بها تلك الأغراض فلم يكن هذا من شأنهم. إن عاجلاً أم آجلاً كانت تلك الأغراض تظهر أمامهم وتمضى المشاريع قدماً، بلا أسئلة تطرح.

فى النهاية ومع نجاحها المستمر، توسعت لاكام لتصبح متعهداً عاماً للحصول على ما يتطلبه المشروع على المستوى الدولى -غالباً عن طريق السرقة- أى لكل الاحتياجات العلمية والتكنولوجية لما سيصبح لاحقاً المجمع الإسرائيلى العسكرى الصناعى الموسع المملوك للحكومة. وكمجموعة ستتطور تلك الصناعات الإسرائيلية لتصبح رابع أكبر مُصدِّر للأنظمة المتعلقة بالدفاع العسكرى فى العالم، بعد الولايات المتحدة وروسيا وفرنسا، وتحقق مبيعات سنوية بمليارات الدولارات، وأغلب الفضل فى ذلك يعود للاكام.

كانت لاكام وليس الموساد هى التى لعبت الدور الحاسم فى بناء أساس قدرة الردع الإسرائيلية النووية. ويوضح تقرير كتبته الاستخبارات المركزية الأمريكية عام ١٩٧٦ مدى نجاح لاكام فى إخفاء وجودها. ورصد التقرير وحلل بعناية ودقة شديدتين المجتمع الاستخباراتى برمته فى إسرائيل وكل أفرعه المتنوعة، مشيراً بشكل عام، إلى اهتمام إسرائيل الكبير بالعلوم والتكنولوجيا فى البدان الغربية. لكن الشيء المثير للفضول هو أن ذلك التقرير لم يذكر قط مكتب المهام الخاصة أو مكتب الاتصال العلمى أى لاكام.

لكن بدلاً من ذلك كانت كل الشكوك فى التقرير من نصيب الموساد، وخدم هذا لاكام أيما خدمة، وأثار الابتسامات على وجوه أولئك العالمين ببواطن الأمور فيها. بالرغم من التقدم الهائل فى الموارد، والقوة البشرية، والميزانيات، والتكنولوجيا، كانت الاستخبارات الأمريكية لا تعرف أى شيء عن وجود لاكام

وكانت قد ظلت هكذا منذ ١٩٥٧ . لكن كان لها أن تعرف بأمر تلك المنظمة فى ظروف فاضحة بعد عدة أعوام أى فى عام ١٩٨٥ .

وعلاوة على ذلك، فقد تغاضت الاستخبارات الأمريكية عن مراقبة تلك الواجهة لأنها اعتمدت بشكل عام على التفاهم الرسمى بين إسرائيل والولايات المتحدة بأن يتجنب البلدان التدخل فى أسرار أحدهما الآخر، ذلك الاتفاق الذى خُرق مراراً وبشكل سافر، كما هو واضح فى التسريب الأخير غير المصرح به من قبل ويكيليكس عن البرقيات الدبلوماسية السرية.

استندت وضعية لاكام شديدة السرية على عمل رئيس قسم الاستخبارات المضادة فى السى آى إيه الأسطورى جيمس جيزاس أنغلتون، والذى أدار الملف الإسرائيلى فى السى آى إيه وكأنه ملكيته الشخصية. كان صديقاً جريئاً عزم على غض البصر طالما تسير استخبارات الموساد فى الاتحاد السوفييتى على هواه.

أثناء أول احتكاك له بالسياسة نيابة عن حملة حزب رافى فى صيف عام ١٩٦٥، قابل ميلتشان بينجامين بلومبيرغ، وهو رجل سيصبح من أهم الأشخاص وأكثرهم قيمة فى حياته. عرّفه عليه الأب الروحى بيريز والذى قال "إن كانت هناك قيمة واحدة وددت غرسها فى الشاب أرنون، فقد كانت هى أن الرجل الذى يخدم غروره يعد رجلاً تافهاً، والرجل الحقيقى يجب أن يخدم قضية أكبر منه، وهذا ما يملأ حياة المرء بمعنى حقيقى".

وعلى خلاف بيريز لم يكن بلومبيرغ جزءاً من الحركة السياسية. بل كان رجلاً متحفظاً ساعده صمته فى الحفاظ على منصبه كرئيس لمنظمة لاكام حتى بعدما ترك كل من بيريز وبن جوريون وزارة الدفاع. ويوصف بلومبيرغ من قبل

من قابلوه صدفة، لكنهم لا يعرفونه جيداً، بأنه رجل بارد ذو وجه جامد صارم. يوافق مظهره الصورة البصرية لموظف حكومي من الشريحة المتوسطة، وكان من الصعب على الكثيرين أن يصدقوا أن هذا الرجل المنضبط قليل الحديث أنشأ شبكة استخبارات عالمية ذات جرأة وتعقيد وسرية غير مسبوقة. وأصبح ميلتشان ممن جندهم، صديقاً له، وأجرأ عميل لديه.

كان أول اجتماع لهما غير رسمي في كافيتيريا في مبنى المنظمة الصهيونية الأمريكية في شارع ابن غافريول. ولاحقاً، اكتسبت اجتماعات غرفة الحرب في لاكام زخماً أكبر. وكانت عملية التجنيد تدريجية، لكنها لم تتطلب كثيراً من الإقناع، "بالرغم من الفارق العمرى بينهما، والذى يتجاوز العشرين عاماً، فقد أصبح بينجامين بلومبيرغ وأرنون ميلتشان صديقين حميمين" وفق ما قاله عميل سابق في لاكام. وأضاف "إن المرات الوحيدة التى كنت أرى فيها بلومبيرغ مبتسماً كانت تلك التى يكون فيها في صحبة ميلتشان. كان ميلتشان الوحيد الذى لديه القدرة على اختراق واجهة بلومبيرغ وفتح أحاديث صغيرة مع كبير رهبان السرية".

كان دور بلومبيرغ في برنامج إسرائيل النووى جوهرياً. في عام ١٩٥٨، التقطت الولايات المتحدة صوراً فوتوغرافية لمفاعل ديمونة من طائرات التجسس طراز يو ٢، تعرف محلل الصور الأمريكي الأسطورى دينو بروغيونى على الموقع في الحال على أنه مجمع محتمل لمفاعلات ماركول فرنسى التصميم.

وبالرغم من وجود سياسة صارمة لرقابة كل كلمة تخص المفاعل في إسرائيل آنذاك، تسربت المعلومة في النهاية في ١٦ ديسمبر عام ١٩٦٠. ونشرت جريدة نيويورك تايمز الخبر في مقالة بالصفحة الأولى، بناء على

تسريبات من مصادر بالحكومة الأمريكية، فى مجهود مكثف لإجبار الإسرائيليين على الاعتراف بالعملية.

فى تلك المرحلة أُجبر بن جوريون على الظهور على منصة الكنيست والاعتراف علناً بوجود المفاعل النووى، والذى أقسم أنه لأغراض سلمية فقط. بالطبع ومن البداية لم يكن لدى بيريز ولا بن جوريون نية فى حفظ أى وعود بشأن سلمية البرنامج، لكن إسرائيل لعبت دور البريئة. عندما أصرت الولايات المتحدة على الفحص الفيزيقى للمفاعل، عمل بلومبيرغ وفريقه بكامل طاقتهم وجُهِّز المفاعل بأكلمه بحوائط مزيفة، وغرفة تحكم مزيفة، وبنوافذ مزيفة، وبممرات لا تؤدى إلى شىء، تلك التجهيزات التى من شأنها أن تُشعر أى مصمم مواقع فى هوليوود بالخزى.

وما أن غادر الأمريكيون، تم تفكيك تلك المشاهد المعقدة سريعاً وتخزينها على مقربة تحسباً لجولة تالية. ورحل المفتشون بلا أدنى فكرة عما كان يحدث بالفعل فى ديمونة بعد زيارات عديدة ما بين ١٩٦٢ و١٩٦٩ . وفى النهاية استسلم الأمريكيون.

وطوال عقد الستينيات بأكمله كان بلومبيرغ يرافق شخصياً كل شحنة كبيرة من المعدات من وإلى المفاعل والمواد التى بدت أنها تظهر فجأة فى إسرائيل كما السحر، بأسلوب حاسم وإصرار يكاد يكون متطرفاً لإتمام المشروع. وفى حالة وجود أى فرد يفرط فى الكلام أو يحتاج للتقويم، كان بلومبيرغ هو من يتولى تلك المهمة شخصياً. كان يجلسهم وينظر فى أعينهم ويحذرهم بصوته الصارم الخافت الهادئ، وكأنه يهمس.

وبعد تلك المقابلات المدمرة للأعصاب، كان الأفراد نادراً ما يعودون لنفس

الخطأ مجدداً.

وبحلول منتصف الستينيات، تقريباً في ذات الوقت الذي تم تجنيد ميلتشان فيه، اتخذت فرنسا التي كانت تحت قيادة ديجول قراراً استراتيجياً بإصلاح علاقاتها مع العرب، على حساب إسرائيل. بدأ التحالف القوي بين فرنسا وإسرائيل والذي استمر على ذلك الحال منذ قيامها، يتداعى، وأجبرت إسرائيل على المضي قدماً وحدها حتى عثرت على داعم جديد.

غدت لاكام أكثر أهمية بعد انتهاء التحالف مع فرنسا، واحتاجت إسرائيل لمعدات ومواد إضافية لم تعد متاحة من فرنسا. كان من الواضح أيضاً صعوبة الحصول على أي من تلك المواد من أي مكان آخر. وبالطبع كانت مهمة لاكام ملء الفجوات وبدأت تتجه لأرنون ميلتشان لتحقيق ذلك.

ومن ذلك المنطلق، نشر بلومبيرغ شبكة من الملحقين العلميين عبر الولايات المتحدة وإيطاليا وبريطانيا العظمى وألمانيا وفرنسا، واختيروا جميعهم من نخبة من علماء الكيمياء والفيزياء والمهندسين، ومعظمهم كان على صلة بشكل ما بوكالة الطاقة الذرية الإسرائيلية، أو بفروع أخرى من صناعات الدفاع العسكرى الإسرائيلية. وكلفوا بالمتابعة الدقيقة لأى تطور علمي أو تكنولوجي فى العالم، والاشتراك فى جميع الصحف الدورية والعلمية، وتطوير علاقاتهم المهنية والشخصية بالعلماء في البلدان التي بعثوا إليها وإرسال تقارير عن مهامهم.

وقد كان الملحقون من العلماء يرفعون تقاريرهم لبلومبيرغ شخصياً، وكانت كل التقارير مآلها إلى مكتبه. وكان موظفو لاكام يبلغونهم بالتعليمات فى خصوصية قبل أن يغادروا البلاد، ويستجوبونهم فور عودتهم. وفي بعض

الحالات كانوا يعملون أيضاً كحلقات وصل بين الجامعات الكبيرة والمعاهد العلمية، وبين العلماء اليهود والإسرائيليين الذين قد عملوا بها. وكان هؤلاء العلماء غالباً أكاديميين فى إجازات دراسية، وغالباً ما كان يطلب منهم خدمات لصالح لاكام. وقد ظل المجتمع العلمى فى إسرائيل وثيق الصلة بالمؤسسة، ومعتمداً عليها أيضاً.

أصبحت لاكام، ببطء ولكن بيقين، وبالتجربة، أكثر ثقة، وأكثر جرأة، وبمرور الوقت تولت المزيد من المهام، ثم أضافت ملحقين عسكريين بالسفارات الإسرائيلية إلى شبكتها أيضاً. وبعد فترة وجيزة بدأ بلومبيرغ يوجه ملحقيه للبحث عن مواد مسروقة فعلياً من الهواة الذين كانوا يتعاطون معهم فى مختلف المعاهد العلمية، تقرير بحثى هنا، أو رسمة تقنية هناك.

وأدار بلومبيرغ بطرق كلاسيكية وسينمائية عمليات نقل المواد المسروقة وتسليمها، من تبادل الطرود أسفل المناضد فى المقاهى العامة إلى تسليمها فى حمامات المطارات. وفى النهاية كانت المواد توضع فى حقائب دبلوماسية وترسل إلى تل أبيب لتحليلها، وتوزع على الكيانات العلمية والدفاعية المتنوعة والتى يمكنها الاستفادة منها بأقصى درجة ممكنة.

حدثت إحدى أولى عمليات لاكام فى الولايات المتحدة فى مطلع الستينيات، اكتشف جون هادين رئيس مكتب السى آى إيه فى السفارة الأمريكية فى تل أبيب -والذى أدار معركة دهاء حامية مع بلومبيرغ، بالإضافة إلى برنامج متكامل للتجسس على الأنشطة حول مفاعل ديمونة- شحنة تقدر بمائتى رطل من اليورانيوم المخصب، ذهبت كلها إلى البرنامج النووى الإسرائيلى. وقادته عدة خيوط إلى شركة المواد والمعدات النووية، إن يو إم إى سى فى أبولو،

بنسلفانيا. كان مالك المصنع اسمه الدكتور زلمان شابيرو. الذى كان قد عمل فى مشروع مانهاتن،قبل ذلك بأعوام، ثم عمل لاحقاً فى الهيئة النووية التنظيمية الأمريكية.

وكان هادين مقتنعاً أن المصنع فى بنسلفانيا قد أنشئ بأموال إسرائيلية وأن الغرض الأساسى هو إمداد مفاعل ديمونة باليورانيوم المخصب. وبالرغم من أن هادين كان بحوزته دليل الإدانة، فقد تم تسوية المشكلة فى النهاية بغرامة دفعها المصنع بتهمة الإهمال. ولم يُتهم شابيرو قط، ولم يتم العثور على المائتى رطل من اليورانيوم المخصب، ولم يُقدم دليل قاطع بإطلاقه.

لكن كانت هناك مشكلة مع الملحقين العلميين، والذين لم يكونوا عملاء مدربين بحرفية. من ناحية، كانت تلك طريقة جريئة وغير تقليدية وعملت لصالح بلومبيرغ، لكنها من ناحية أخرى كانت تحمل المخاطر. وحدث عدد من الوقائع كادت تنتهى بدخول العملاء السجن، كما فى واقعة شركة المواد والمعدات النووية. ومع ذلك فقد تزايد الطلب على الاستخبارات العلمية مع كل خطوة صغيرة على درب تحقيق الأهداف الاستراتيجية. وأدرك بلومبيرغ أنه يحتاج للتوسع فى أساليبه إن كان له أن يستمر فى سد الاحتياجات المتزايدة لمنظماته وللكيانات الأخرى المتعلقة بالدفاع العسكرى.

وهكذا توصل للبحث عن شخصيات رئيسية فاعلة في قطاع الأعمال الإسرائيلى والدولى وتجنيدهم. وهذا ما حفز بلومبيرغ عندما قابل ميلتشان الشاب المبهر، والذى -كما هؤلاء العلماء- كان متحمساً لفرصة خدمة بلاده. وأصبح لبلومبيرغ ذراع دولية حقيقية.

وبطرق عدة، كانت علاقة بلومبيرغ بمن جندهم من قادة البرنامج تكافلية.

إذ فهم الجميع أنهم لا يعملون لصالح الحكومة الإسرائيلية بصورة رسمية، وكانوا لا يتلقون أجوراً ولم يتكفل أحد بدفع مصاريف التأمين على علاج الأسنان. وفى مقابل خدماتهم السرية كانوا يعاملون كأمراء بين الناس. وكانت أعوام ميلتشان الأولى مع لاكام هى الأكثر زخماً فى تاريخ المنظمة، وكان إبداع ميلتشان ضمن أصول المنظمة الجوهرية.

ذاق الإثارة لأول مرة أثناء اثنتين من أشهر العمليات التى أدارتها لاكام، وحدثت كلتاهما بعدما فرضت فرنسا حظراً كاملاً على إمداد إسرائيل بالسلاح بعد حرب الأيام الستة. إحداهما كانت تدعى عملية تشيربورغ من قبل الموساد، بينما اضطلعت لاكام بالعملية الثانية وتدعى ستاربوت. وكانت العملية توضيحاً مبهراً للطريقة التى كانت لاكام تجند بها عملاءها وتعمل بها عن كثب مع شخصيات رجال الأعمال القائدة من القطاع الخاص الإسرائيلى، والذين سعد أغلبهم بأن طُلِب منهم أداء الخدمة.

فى عشية رأس السنة عام ١٩٦٩، غادر عملاء الاستخبارات الإسرائيلية ميناء تشيربورغ الفرنسى بخمسة قوارب محملة بالصواريخ كانت إسرائيل قد دفعت ثمنها بالفعل، لكن الفرنسيين كانوا يرفضون الإفراج عنها بسبب حظر السلاح الذى كانوا قد فرضوه مؤخراً. وفى هذه العملية بالتحديد، جندت لاكام رجل أعمال إسرائيلياً شهيراً يدعى ميلا برينر، وكان من أكثر الرجال ثراء فى إسرائيل ومالك لشركة شحن سفن كانت تنقل الموالح أصلاً من إسرائيل إلى أوروبا، وكانت مهمة برينر هى افتتاح شركة وهمية لاستكشاف البترول فى النرويج تدعى ستاربوت، تمولها حسابات لاكام السرية. وكانت ستسجل على أنها شركة من باناما ومن ثم تقدم عرضاً وهمياً للحكومة الفرنسية لشراء القوارب الموجودة فى ميناء تشيربورغ. وقدمت الحكومة الفرنسية العرض إلى

إسرائيل والتي دخلت في مفاوضات حامية مع الشركة النرويجية. وبعد أسبوع من المساومات المزعومة، وافق الإسرائيليون على بيع القوارب إلى النرويجيين، والذين لم يوافقوا على البيع النهائي إلا بعد السماح لهم بتجربة القوارب في البحر للتأكد من صلاحيتها. ووافقت كل الأطراف على ذلك.

وانطلقت مجموعة من عملاء الموساد الإسرائيليين الشقر يلعبون دور بحارة نرويجيين إلى البحر المفتوح، بتصريح كامل من الحكومة الفرنسية، للقيام بما كان يفترض أنها تجربة أداء سريعة. ولم تعد القوارب قط لتشيربورغ، وبدلاً من ذلك توجهت مباشرة إلى شرق البحر المتوسط. وعندما فطن الفرنسيون لما كان يحدث، كانت القوارب قد قطعت نصف المسافة بالفعل إلى إسرائيل.

ونظمت لاكام عدة لقاءات سرية كانت قد حُددت مسبقاً لتزويد قوارب الصواريخ بالوقود في البحر المتوسط. وتم تحقيق ذلك بمكالمة واحدة إلى شركة الشحن الوطنية الإسرائيلية زيم.

وصدم الفرنسيون وأحرجوا عندما ظهرت العملية الاحتيالية الوقحة للعلن. وانتقموا بطرد الملحق العسكرى الإسرائيلي موردخاي موشا ليمون من فرنسا.

كانت تلك الأيام الجامحة التي أعقبت حرب الأيام الستة، عندما بدا أن كل شيء ممكن وكانت الوقاحة فضيلة يحتفى بها. ازدهرت أعمال لاكام ووجدت أي مادة متعلقة بالدفاع العسكرى يمكن تخيلها طريقها إلى إسرائيل. ومن نجاحات لاكام الساحقة الأخرى والتي عززت سمعة بلومبيرغ في الدوائر الاستخباراتية الإسرائيلية ودفعت بها إلى آفاق جديدة كانت هي السرقة

الوقحة لتصميم المقاتلة الجوية سوير ميراج، وهى أفضل طائرة حربية فى فرنسا، من مصنع سويسرى لمحركات الطائرات، وهى عملية أخرى تم تنفيذها فى عام ١٩٦٩ .

كان الكولونيل دوف سيون زوج ابنة موشيه ديان هو الملحق العسكرى الإسرائيلى فى مدينة بيرن. تعرف سيون على عامل ساخط من الشركة السويسرية اسمه ألفريد فراونكنيخت وجنده، ولم يكن العامل يهودياً لكنه كان داعماً قوياً لإسرائيل. تم دفع حوالى ٢٠٠ ألف دولار لفراونكنيخت لتسليم التصميمات الكاملة للطائرة المقاتلة ميراج عن طريق وضع بروفات تصميم الطائرة كاملة فى صناديق فى مناسبات منفصلة مختلفة وتسليمها لسائق ألمانى اسمه هانز ستراخر، والذى كان ينقلها بالسيارة إلى روما ومنها إلى إسرائيل فى حقائب دبلوماسية.

فى النهاية لاحظت السلطات السويسرية ما كان يحدث، وآنذاك كان بلومبيرغ قد نقل معظم التصميمات إلى مكاتب لاكام بتل أبيب، وسلمها سريعاً إلى أل شويمر، رئيس مجلس إدارة شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية. تم القبض على فراونكنيخت واعترف فى الحال، وصرح بأنه فعل كل ذلك لأسباب أيديولوچية، بسبب تعاطفه مع إسرائيل.

حكم عليه بحكم مخفف وهو عام فى السجن. أما السائق هانز ستراخر فقد أفلت من القبض عليه بشق الأنفس وتم تهريبه إلى إسرائيل، حيث أعطته لاكام هوية جديدة قبل أن ينتقل إلى بلد غير معروف ليبدأ حياة جديدة أخرى. وتكرر منهج لاكام مراراً فى حالات أخرى عندما كان يتم اكتشاف عملائها.

فى ٢٩ من أبريل عام ١٩٧٥ استعرضت إسرائيل أحدث طائرة مقاتلة

أصلية لديها واسمها الكفير، والتى بدت مشابهة بشكل صادم للطائرة ميراج. سافر فراونكنيخت إلى إسرائيل ليشهد انطلاقتها الأولى، وكان ضمن الحضور أيضاً بنيامين بلومبيرغ وأرنون ميلتشان وعملاء آخرون فى لاكام.

فى نوفمبر من عام ١٩٦٨، اشترت شركة كيماويات ألمانية اسمها أسمرة، من خلال شبكة معقدة من الشركات الفرعية، مائتى طن من أكسيد اليورانيوم أو الكعكة الصفراء. وأصدروا شهادة مستخدم نهائى كما هو مطلوب لأية صفقة بيع دولية تتضمن اليورانيوم، وكان لديهم جميع الوثائق المطلوبة. وصل الكعك الأصفر إلى ميناء أنتويرب فى بلجيكا من منجم للمعادن فى الكونغو مملوك لشركة بلجيكية اسمها سوسيستيه جنرال دى مينارو. ومن ميناء أنتويرب، تم تحميل الشحنة على سفينة اسمها شيزبيرغ أيه ترفع العلم الليبيرى.

وأخطرت السفينة المختصين بأن وجهتها هى جنوة بإيطاليا. ولم تصل هناك قط. وبدلاً من أن تتجه شمالاً عندما دخلت البحر المتوسط، مضت شرقاً. وفى مكان ما فى البحر المتوسط تلاقت مع سفينة إسرائيلية مملوكة لشركة زيم، ولم ير أحد المائتى طن من أكسيد اليورانيوم مجدداً أبداً. وبعد بضعة أيام شوهدت السفينة فى مدينة الإسكندرونة بتركيا، بدون حمولتها وباسم جديد.

وعرفت الواقعة برمتها باسم العملية بلامبات. وهو لفظ مشتق من الكلمة الإيطالية بلامبام وتعنى معدن الرصاص، فى إشارة إلى علامة الطبول التى كانت تستخدم لنقل الكعكة الصفراء. كانت شبكة شركات الواجهة والخداع المستخدم فى العملية معقدة للغاية لدرجة أن السلطات الأوروبية لم تتمكن يوماً من حل لغز خطة العملية.

■ ● ■

وأثناء تلك العمليات تعرف ميلتشان لأول مرة على مجال الاستخبارات، وعرف كيف يعمل فى الظل مع بنيامين بلومبيرغ. وتعلم أيضاً لِم عليه أن يبتعد عن الإعلام، تعلم ميلتشان كيف يلتزم الصمت وكيف يعمل فى عزلة مطلقة. وتعلم لِم تُعَد السرية المزدوجة مهمة: السرية عن العدو بالخارج والسرية عن الغرماء بالداخل... أى الموساد، وأمان، وشاباك، ووزارة الشئون الخارجية.

تعلم كيف ينشئ شركات واجهة مستخدماً هوية لطرف ثالث، وحسابات مصرفية سرية، ووثائق مستخدم نهائى مزورة، وحقائب دبلوماسية، ومواعيد للقاءات فى منتصف البحر لشحنات السفن. وتعلم كيف يجند ويحفز المواطنين الأجانب لتنفيذ أوامره من خلال إثارة الشهوة والطمع وأى ضعف آخر يمكنه استغلاله. باختصار، تعلم فن العملاء السريين من بلومبيرغ، الذى كان صبوراً للغاية مع الشاب أرنون. عندما كان ميلتشان يتحدث، كان بلومبيرغ يرتشف ببطء من قدح الشاى وينصت، فى الأغلب وهو صامت.

راقت طبيعة لاكام لشخصية ميلتشان، إذ أديرت المنظمة بحسم وعلى عجل، بقليل من أخطاء الغفلة الرسمية، وكانت الفكرة وراءها هى تشجيع وجود بيئة خلاقة للجرأة والمخاطرات المحسوبة. بحث بلومبيرغ عن عملاء عدوانيين يتمتعون بروح المغامرة ويفكرون خارج القوالب المعهودة، عن أشخاص يظهرون التوازن المناسب بين الحكم الصائب والقدرة على الارتجال الميدانى ويقدرون مسئولية المخاطرات بدون الحاجة للاتصال بقياداتهم فى الوطن كل دقيقة. وحقق إبداع لاكام نجاحاً غير مسبوق لإسرائيل، لكن تلك العقلية ذاتها هى التى أدت إلى الكارثة.

كانت علاقة العمل الوثيقة بين ميلتشان وبلومبيرغ مثمرة بما يفوق الحاجة،

ولن تُعرف تفاصيل معظمها أبداً. عندما يسترجع بلومبيرغ برضا بالغ تفاصيل الشبكة الدولية التى أنشأها، يبرز اسم ميلتشان كثيراً. عندما كان بلومبيرغ يحتاج لألف طن من بيركلورات الأمونيوم، والبيوتاريز وألياف الكربون، وبوصلات جيرسكوبية خاملة، ومقياسات تعجيل، ورادارات لتحديد الدقة، ومواد أخرى أساسية مطلوبة من أى شخص يسعى لتطوير سلاح ردع نووى، كان يتصل بميلتشان.

كان انتقال ميلتشان المستمر بين الدول والقارات هو ما جعله هدفاً مراوغاً لأى جهود استخبارات مضادة، وهذا ما جعله من أهم المكاسب المثمرة للاكام ولدولة إسرائيل.